المحاضرة السادسة: الفـكر الاشـتراكـي

أدى تطبيق النظام الاقتصادي الرأسمالي في العديد من الدول الأوروبية منذ القرن الثامن عشر إلى ظهور مشاكل مختلفة، وخاصة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، فرغم ما تحقق من تطور على الصعيد الاقتصادية نتيجة الثورة الصناعية من استخدام للآلة وظهور اختراعات غيرت من حياة الأفراد، وحققت مستويات عالية من التنمية الاقتصادية إلا أن ذلك ترافق مع مزيد من الظلم والبؤس وخاصة على مستوى الطبقة العاملة، وهذا ما أدى إلى ظهور تيار فكري معارض يتمثل في الفكر الاشتراكي.

أولا: مفهوم النظام الاشتراكي

تعني الاشتراكية العديد من المعاني ويطلق الاشتراكية على تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، وبذلك تكون الاشتراكية نقيضا للحرية الاقتصادية، كما تطلق أحيانا للتعبير عن تدخل الدولة في حياة العمال والطبقات الفقيرة، بهدف سن التشريعات الاجتماعية والاقتصادية التي تخفف من معاناتهم وتمنحهم بعض المزايا.

كما تعرف الاشتراكية بأنها ذلك النظام الاجتماعي الذي يتسم بتملك الدولة لأدوات الإنتاج، أو ما هو معروف بالملكية الجماعية، وبهذا الوصف فإن الاشتراكية تختلف جوهريا عن الرأسمالية التي تعتبر إحدى ركائزها تملك أفراد المجتمع لكافة أدوات الإنتاج وسلع الاستهلاك وما هو معروف بالملكية الخاصة.

ثانيا: ما قبل الماركسية

لقد ظهرت عدة آراء مهدت لظهور الفكر الماركسي أطلق عليها الاشتراكية الخيالية و قد مثل هذا الاتجاه عدة مفكرين و على رأسهم سيسموندي، سان سيمون، روبرت أوين و تشارل فوريه و غيرهم.

1- سيسموندي (1773-1848):

لقد عارض سيسموندي* الكثير من أفكار التقليديين، فهو يرى أن الاقتصاد علم أخلاقي يرتكز على الملاحظة ودراسة التاريخ و يرى أيضا أن موضوع الدراسة الإنسان وليس الثروة، كما شارك في التوافق بين المصلحة العامة و الخاصة.

* - ولد سنة 1779 بجنيف سويسرا واكتسب شهرته كمؤرخ، وعرف بنقده للمدرسة الكلاسيكية في القرن 19م، ووضع أسس المدرسة التاريخية الألمانية

لقد هاجم سيسموندي الأوضاع التي آلت إليها طبقة العمال نتيجة لآثار الثورة الصناعية، والصراع الطبقي بين العمال وأرباب العمل، و يرى أنه كان من الواجب قيام علاقات تعاون بينهم و ليس علاقة صراع.و رأى أنه يمكن القضاء على هذا الصراع عن طريق إصلاح التنظيمات والمؤسسات.

2- سان سيمون:

لقد عاصر سان سيمون* الثورة الصناعية، وقد نادى بتوجيه كل العناية للإنتاج الصناعي والتخلص من كل عامل خامل أو عاطل يعوق تدفق الإنتاج في شريان الحياة الاقتصادية، و قد نال أتباع مذهب سان سيمون صفة الاشتراكية رغم كونه ليس كذلك. نظرا لرؤية هذا المذهب الداعي لإلغاء نظام الإرث، و على هذا الأساس نادى دعاة هذا المذهب بمنع انتقال الثروة عائليا، بل تنتقل إلى الدولة باعتبار أنها تمثل المجتمع، و من ثم ينبغي على الدولة تولي مهام تنظيم عمليات الإنتاج والتوزيع على أساس أن يعهد إلى كل فرد بذلك العمل الذي يتوافق مع كفاءته وهنا تنال الكفاءات بقدر ما تبذل من أعمال.

3- روبرت أوين:

حاول روبرت أوين* تطبيق فكر اشتراكي مثالي و ذلك في تجربة فريدة و تحت يده وإدارته وكان ذلك في نيولانارك باسكتلندا و قد تبجلت أحوال العمال الذين كانوا يعملون تحت إمرته و قد كان يرى أن البؤس الذي يصيب الطبقة العاملة هو نتيجة لسلوكهم و أفعالهم و بإمكانهم تغيير ذلك عن طريق إصلاح ظروفهم و بيئتهم التي يعملون بها ،و قام أوين بوضع مبادئ أخلاقية و فلسفية مثالية ومن هذه المبادئ أن طبع الإنسان ليس مرتبطا بالبيئة و أن بإمكانه تغيير طباعه و أن يكتسب أخرى جديدة، و أن أي فرد قادر أن ينتج أكثر مما يستهلك، و إن احتاج هذا إلى التدريب و التعليم.

و قد نادى روبرت أوين بإلغاء ربح المنظم الرأسمالي، لأن السلع في رأيه لا يجوز أن تباع بأكثر من نفقة إنتاجها، كما أن الربح حسب رأيه يدل على عدم عدالة التوزيع، و قد بين وجهة نظره هذه على أزمات فرط الإنتاج.

* - ولد سنة 1960 بفرنسا، شارك في حرب الاستقلال الأمريكية، ويعد من أعظم رجال العلم بفرنسا، توفي سنة1825.

* - روبرت أوين: ولد سنة 1771، ببلز ببريطانيا، جنى ثروة كبيرة من امتلاك الآلات الحديثة الخاصة بالغزل والنسيج، توفي سنة 1858.

4- شارل فوريه:

يمثل شارل فورييه علما من أعلام الاشتراكية الفرنسية و يشير من خلال اقتراحاته إلى نوع من التعاون في الاستهلاك والمعيشة وتبدو أفكار فورييه من خلال مدينة الفلانستير الفاضلة وهي عبارة عن فندق يضم 1500 شخص يعيشون حياة متماثلة و مشتركة في مختلف جوانب الحياة، وقد عدد فورييه في هذا الفندق خمس طبقات تدفع أثمانا مختلفة للإقامة، ومنها طبقة إقامة مجانية.

و يذهب فورييه إلى أن هذه المعيشة المشتركة تؤدي إلى تخفيض النفقات بشكل واضح، أما من الناحية الاجتماعية فسوف تخلق من هذه البيئة بيئة اجتماعية صالحة مختلفة عن البيئة الفاسدة التي يعيش فيها الفرد في ظل النظام الرأسمالي الصناعي .

- ثالثا: الاشتراكية الماركسية (العلمية):

يعد الفيلسوف الألماني كارل ماركس هو مؤسس الاشتراكية العلمية، حيث تأثر خلال سنين دراسته بالفيلسوف هيجل، و الذي من خلال هذا الأخير طور مذهبه في الجدلية المادية.

وتعرف نظرية هيجل بنظرية التطور الديالكتيكي التي فسر بها تطور الفكر الإنساني، أي أن أي فكرة تحمل في طياتها بذور زوالها.

كما أدى الفيلسوف فريدريك أنجلز دورا كبيرا في تشكيل مذهب ماركس المادي، وخاصة في مجال النظرية الاقتصادية، حيث دعمه كثيرا و كان إلى جانبه حتى في مجال الدعم المادي.

و من جهة أخرى اعتمد ماركس على فكرة الصراع الطبقي، حيث انطل ق ماركس من التفسير المادي للتاريخ ليبرر هذا الصراع، حيث يستمر الصراع مراحل التاريخ، لأن الطبقات التي يتعرض مركزها للخطر تحارب الطبقات التي يقوى مركزها.

رابعا: التحليل الاقتصادي عند ماركس:

إن الجانب الاقتصادي في تحليل ماركس يصب كله على تبيان كيف تؤدي القوى الاقتصادية الكامنة في النظام الرأسمالي على القضاء عليه ،كما يلي:

1- قيمة العمل و فائض القيمة :عند ماركس قيمة أي سلعة تتحدد بعدد ساعات العمل التي بذلت في صنعها، فأساس القيمة هو العمل.

أما عن فائض القيمة فقد بين ماركس أن الرأسماليين يحققون فائض القيمة من خلال استغلال العمال بتشغيلهم ساعات إضافية ،و فائض القيمة يتحدد بمقدار تلك الساعات الإضافية الزائدة عن الحجم الساعي العادي المدفوع للعامل طبقا لنظرية القيمة،أي يدفعون لهم مقدار الحجم الساعي اليومي العادي و يحتفظون بالفرق بين الحجم الساعي العادي و الإضافي و يعبر الفرق هذا مصدر ربحهم.

2- تراكم رؤوس الأموال:تتشكل من خلال أن الرأسماليين يوزعون الجزء الأكبر من أرباحهم من أجل إقامة رؤوس أموال منتجة من آلات و مصانع و غيرها ، و يفسر ماركس ذلك بإشباع ميل الرأسمالي و كذا بقائه في السوق من خلال المنافسة ولا يكون ذلك إلا من خلال زيادة الاستثمارات التي تؤدي إلى زيادة الإنتاج مما ينعكس على ثمن السلعة الذي يقل لأن إنتاجية العامل تزيد باستخدام الآلات ،و هذا ما أسماه ماركس بقانون تراكم رؤوس الأموال.

3- تركز رؤوس الأموال :أي تركز رؤوس الأموال في أيدي فئة قليلة من كبار الرأسماليين ،من خلال أن المشروعات الكبيرة تبيع منتجاتها بأثمان ارخص مما تبيعه المشروعات الصغيرة ،و بالتالي يؤدي ذلك إلى القضاء على هذه الأخيرة لانعدام تنافسيتها ويتحول صغار الرأسماليين لعمال لدى كبار الرأسماليين.

4- الجيش الاحتياطي الصناعي:تكون هؤلاء من خلال إحلال الآلات محل الأيدي العاملة ، وهذا المصطلح جاء به ماركس و بين كذلك أن الرأسماليين استغلوا وجود هؤلاء المتعطلين بضغط على العمال بعد المطالبة بزيادة أجورهم ،لأن هذا يجعل الرأسمالي يستغني عنهم و يغطي النقص من الجيش الاحتياطي الصناعي.

خامسا- تقييم المذهب الاشتراكي:

لقد مثلت أفكار ماركس أهم دعائم النظام الاشتراكي و التي وجدت صدى فعليا لها في العديد من دول العالم بعد أن كان فكرا مذهبيا فقط حيث يعد الاتحاد السوفياتي (سابقا) أهم النماذج التي طبقت النموذج الاشتراكي لتمتد بعدها إلى كثير من بلدان العالم بعد الثورة البلشفية و التي قامت في الاتحاد السوفياتي سنة 1917 منها دول أوروبا الشرقية، والصين، ودول أمريكا الجنوبية ، وحتى الدول العربية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية.

كما تعد الأزمة العالمية التي زعزعت الاقتصاد الرأسمالي سنة (1929)، من الأسباب التي ساعدت على انتشار المذهب الاشتراكي، و بالتالي فقد ساعدت الأوضاع الاقتصادية ما بين الحربين على اتساع وانتشار المذهب الاشتراكي.

ترجع أسباب نجاح التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي إلى الخصائص التي انفرد بها في تلك الفترة وخاصة ضعف تطور الرأسمالية فيه واستخدام أدوات السلطة السياسية لإنجاح ذلك ، حيث عمدت دولة الاتحاد السوفياتي إلى تعجيل عمليات التطور الاقتصادي و الاجتماعي و الانتقال إلى الاشتراكية ، وعليه تم إخضاع الاقتصاد لأوامر مركزية وتجمع سلطة اتخاذ القرار في أيدي مجموعة قليلة من المخططين مع تخطيط مفصل وإلزامي يشمل جميع نواحي النشاط الاقتصادي، لا تلعب فيه آلية السوق والأسعار سوى دور هامشي.

ورغم الجوانب الإيجابية التي أفرزها النظام الاشتراكي إلا أن عيوبه الكامنة و مساوئه أدت إلى انهياره في العديد من البلدان و يمكن تلخيص أهم عيوبه فيما يلي:

-أدت البيروقراطية والتعقيدات الإدارية إلى قيام علاقة مشوهة بين العامل و الإدارة إضافة إلى أن عملية الإشراف و الرقابة تتطلب جهاز إداري ضخم يؤدي إلى ارتفاع تكاليف العملية الإنتاجية وتعطيل الكثير من الإجراءات.

- إلى جانب المركزية المفرطة على الصعيد الاقتصادي و الإداري، و تفاقم البيروقراطية، تنامت سيطرة الأجهزة الإدارية القائمة على الفساد، و سادت حالة من انعدام الحوافز الفردية التي رغم وجود حوافز مادية و معنوية تشجع على الإنتاج وزيادة معدلات الإنتاجية وهذا لا يرتقي إلى درجة حافز الربح في النظام الرأسمالي.

كل هذه الأسباب و غيرها عجلت بانهيار التجربة الاشتراكية رغم تطبيقه في عدة بلدان.